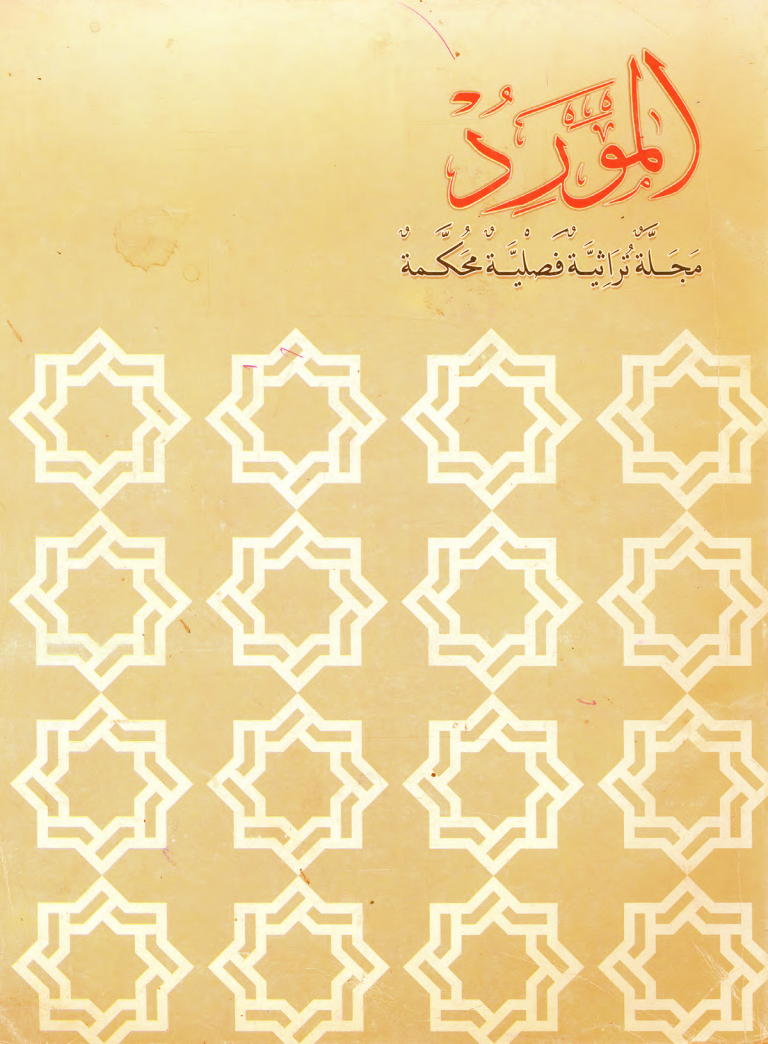
المورد
مجلة تراثية فصلية محكمة

ديوان مالك بن الريب وكتاب الخيل للأصمعي

عرض

طراد الكبيسي

الاعدادية العربية ـ بغداد

في حقل المعرفة والادب ، ينبغي في راينا ، توفر عنصرين اساسيين لا غنى عنهما ، او عن احدهما دون الاخر . هما : الوعي الحضاري ، والحاجة الانسانية . ذلك ان اي عمل في هذا الميدان لا يصدر عن وعي حضاري معاصر ، هو عمل خارج حدود المعرفة التاريخية الحقة . واي عمل لايسد او يمس حاجة انسانية : اجتماعية او قومية ، هو عمل خارج دائرة الجدوى . عمل مجاني . ولا يشترط في العمل هنا ، ان يكون دراسة فقط . بل يشمل حتى الاختيارات والتقديم . ما دام الاختيار والتقديم ، يصدر عن موقف في جوهره .

وفي حركة احياء التراث العربي ، انما تتوخى اولا ، تغذية الوجدان العربي القومي والانساني ، جماليا وفكريا .

ان ابراز القيم الجمالية والثورية لهذا التراث، هدف يقصد به الى تكوين الشخصية القومية ، ورفدها بالينابيع الاصيلة ، وترسيخ الارض التي يقف عليها المواطن اليوم .

على ان الذي نلاحظه في جهود بعض التراثيين ـ ان جاز التعبير ـ انهم ابعد ما يكونون عن وعي التراث وعيا حضاريا معاصرا ، باعتباره عاملا اساسي في تكوين الفرد ، وبنية المجتمع الثقافية . ذلك ان في التراث من سقط المتاع او فاسده، الكثير. بحيث تكون عملية احيائه عملية مجانية ، بل في احيان ، تكون تخريبا للوجدان القومي المعاصر ، وترسيخا لقيم متخلفة بات من البداهة ، محقها . . هذا بينما هناك ، في التراث جانب اخر اكثر اشراقا واكثر جمالية وانسانية . هذا الجانب هو في راينا، ما ينبغي ان تنصب الجهود لا حيائه ، وتقديمه للقاريء ، اليوم .

ولكن الذي نلاحظه ، كما قلنا ، ان البعض من العاملين في هذا الحقل لا يميزون بين ما ينبغي ان يقدّم وما لا يمكن ان يقدم (يمكن ان يترك للباحثين والمتخصصين) واذا ما قدّم فينبغي ان يقوم تقويما علميا يكشف ما فيه من مواطن الخلل .

وفي هذا العدد من « المورد » نعرف بعملين قيمين للدكتور نوري القيسي : ديوان مالك بن الريب . وكتاب الخيل للاصمعي. في الاول، مواقف انسانية لا يمكن انكارها ، بالرغم مما احيطت به شخصية مالك من ملابسات. وفي الثاني: مادة لغوية لا يستغني عنها كاتب ، او قاريء جديد للتراث .ـ

١ ـ ديوان مالك بن الريب :

تأتي شهرة مالك ، كشاعر وانسان ، من مصدرين : اولهما ، قصيدته البائية الشهيرة التي رثىء بها نفسه ، لما تعبر عنه من مواقف انسانية . مواقف انسان مشرف على الموت ، بعد حياة شاقة غنية بالتجارب ، فقد « رسم مالك من خلال هذه القصيدة ، الحقيقة التي يحس بها المرء وهو يقابل المأساة . ويشعر بالنهاية ، ويتلمس ابعاد الحياة التي لابد لها من النهاية المحتومة . وهي حقيقة في الغالب يشوبها الخوف ، ويتناثر في طواياها التفكير المؤلم ، ويتراءى من بين زواياها اليأس المحض » ص ٦٤ .

والمصدر الثاني لشهرة مالك ، هو انه كان خارجا على نظام الدولة ، عابثا بامنها وسلامتها ، متمردا على ولاتها وعمالها . اي انه بلغة المصادر القديمة (كان فاتكا لصا) او صعلوكا من سلالة اولئك الصعاليك الذين نعرفهم في الجاهلية : الشنفرى ، عروة بن الورد ، والسليك بن السلكة .

وبعبارة أكثر حداثه ، كان مالك ، انسانا مغتربا عن مجتمعه « تنامت في نفسه ، روح التمرد والخروج » على المجتمع « حتى أصبحت قيادته أمرا شاقا » . انه واحد من اولئك الصعاليك الذين دفع بهم المجتمع بنظمه وتقاليده الضاغطة ، لان يخرجوا عليه ، وهم يحملون في جنبهم ، اكثر مافي تلك النظم والتقاليد ، من جمال : الكرم ، العفة ، الشهامة ، الشجاعة ، الوفاء ، حب الوطن ، والود الصادق له . واهم من كل ذلك : التوق الحار الى الحرية والتشبث بها ، والموت دونها :

خذاني فجراني بثوبي اليكما
فقد كنت قبيل اليوم صعبا قياديا

والذي يبدو لي ان سبب خروج مالك على آل مروان لا يعود الى « الحاجة التي اقعدته عن مكافاة الاخوان ، والعجز عن المعالي ، ومساواة ذوى المروءات .. » ص ٦١ كما راى ذلك الدكتور القيسي اعتمادا على رواية الاغاني . وان كانت الحاجة المادية سببا ، دون شك ، أساسيا من اسباب الصعلكة في الجاهلية او في الاسلام . مع ملاحظة تاثير الاسلام في الصعاليك للاسلاميين ان للصعلكه اسبابا كثيرة ، لعل اقواها : الحاجة المادية والنظم القبلية ، لامجال للتوسع بها هنا (يمكن ملاحظة كتاب الدكتور يوسف خليف القيم (الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي).

وانا ارى ، بالاضافة الى الحاجة المادية والنظم القبلية ، ان حيفا لحق بمالك بن الريب ، من آل مروان ، اعتمادا على بعض الاشارات التي جاءت في شعره ، أو الشعر المنسوب له . كما قال من ذلك في هجاء آل مروان (لا الحجاج باعتبار انه لم يدرك الحجاج) قال :

فان تنصفونا آل مروان نقترب
اليكم والا فاذنوا بتعادى
فان لنا عنكم قراحا ومزحلا
بعيس الى ريح الفلاة صوادي
وفي الارض عن دار المذلة مذهب
وكل بلاد أوطنت كبلادي

وقوله ايضا يهجو مروان :

لعمرك ما مروان يقضي أمورنا
ولكن ما تقضي لنا بنت جعفر
فياليتها كانت علينا أميرة
وليتك يا مروان أمسيت ذاحر

وقوله ايضا :

احقا على السلطان : اما الذي له
فيعطى ، واما ما يراد فيمنع
. . . . . .
ولولا رسول الله ان كان منكم
تبين من بالنصف يرضى ويقنع

ان كل هذه الاشارات تؤكد ، ان ثمة ظلما لحق بمالك وقومه من قبل بني امية أو آل مروان .. لم يصبر عليه ، ولم يطق المقام « بدار المذلة » يدفع ما عليه للسلطان ، بينما لا يدفع السلطان له حقه . هذا فضلا عن الغدر الذي لم يحتمله . ذلك ان آل مروان قد اتخذوا من مالك وقومه ، درعا لهم في الملمات ، لكنهم اذا ما انفرجت الازمة ، غدروا بهم وتنكروا لهم :

نحن الذين اذا خفتم مجلله
قلتم لنا اننا منكم لتعتصموا
حتى اذا انفرجت عنكم دجنتها
صرتم كجرم فلا آل ولا رحم

ان سياسة بني امية كانت سببا أساسيا في خروج مالك على الدولة :

لا كنت احدث سوءا في امارتكم ..... الخ
(مقطوعة ٢١)

واذا اضفنا الى هذه السياسية المخاتلة: فساد الحالة الاقتصادية وغياب العدالة الاجتماعية ، وتشبع مالك بالقيم البدوية التي ابرزها ، التمسك الشديد بالحرية وعدم الرضوخ للظلم والحكومة المركزية ، تبين لنا لماذا سلك مالك هذا المسلك ! ومن يدرينا لولم يكن (رسول الله من آل مروان — كما قال مالك) ولو لم يكن مالك مسلما ، ماذا كان فعل بهم ؟ !

وعلى اية حال ، فقد بذل الدكتور القيسي ، جهودا جديرة بالثناء والتقدير ، في جمع ما تفرق من اشعار مالك بن الريب ، هذا الشاعر الذي يضرب مثلا في الاباء ، والشجاعة ، والاغتراب ازاء الموت والقيم الاضطهادية .

٢ ـ كتاب الخيل للاصمعي .

« أحب العرب الخيل منذ أقدم العصور ، لما ادته لهم من نفع كثير ، لذلك كانت عنايتهم بها ، واهتمامهم بتربيتها ، عناية تفوق كل شيء . وقد اشتهر الجاهليون بالمحافظة على انسابها ، وعدم

الخلط بين سلالاتها ، فنراهم يخلدون ذكرهـــا وصفاتها في قصائدهم ، ومقطعاتهم وقد عكف فريق من العلماء ، كالاصمعي وابي عبيدة وغيرهما عـلى تدوينها تدوينا منظما ، ووضعوا في ذلك رسـائلهم التي لم يصل الينا منها الا النزر اليسير » .

ومن هذا النزر اليسير الذي وصل ، كتاب الخيل للاصمعي الذي حققه مجددا الدكتور القيسي معتمدا على النسـخة الوحيـدة الموجودة في مكتبة كوبرللي زادة في استانبول ، ومستعينا بنسـخة الاستاذ هافنر المطبوعة سـنة ١٨٩٥ للمخطوطة نفسها ، مصححا ما وقع في نسخة هافنز من تحريف وتغيير ، موضـحا الفروق والاوهام التي تجلت له من خلال العمل . »

وكتاب الخيل ، هو في الحقيقة ، مادة لغوية قيمة لا يستغني عنها كاتب أو قاريء للتراث ـ كما قلنا سابقا ، فهو يعرض لاسـمائها ، وصـفاتها ، واحوالها ، والقصص المشهور عنها .. مما لا يمكن التعرض له هنا ، لاننا لو فعلنا ذلك ، لنقلنا الكتاب كاملا .

ان كتاب الخيل اذا دل على شيء ، فانما يدل على العناية البالغة التي اولاها العرب للخيل ، بحيث انه يمكن القول « ليس في مملكة الحيوان نوع يتداخل تاريخه مـع تاريخ الانسان كالخيـل .. » على انه « بلغ من تعظيمهم للخيل ، انهم كانوا لا يهنئون الا بغلام يولد . او شاعر ينبغ أو فرس تنتج . »

أما السر في هذا الاهتمام بالخيل ، فلابد انه راجع الى الفة هذا الحيوان ورشـاقته وجماله ، وسرعته في العدو هذه السرعة التي بها يتنافسون ، « ويطاردون من انهزم من خصومهم ، ويفرون بها من المعركة اذا شعروا بأن بقاءهم في المعركة لايجدى ، ويقيدون بها الاوابد ، ويصطادون مايعن لهم في هذه المفاوز المقفرة ليتخذوه طعاما يسـدون به غائـلة الجوع ... » كما ذكر ذلك الدكتور نوري القيسي في المقدمة التي خص بها فاتحة الكتاب .

ان جهودا تبذل لبعث ونشـر تراث كهـذا ، لهي حقا جهود ذات نفع علمي وعملي . ولكن مـع هذا تظل الملاحظة التي ذكرناهـا في البدء واردة . اقصد ان أعمـال اخواننا « التراثيين » ومقدماتهم تظل في حـدود الكتابة الوصفية ، أمـا التدقيق ، والتحليل والكشف على ضوء منهج علمي ، تاريخي ، فلم نجد له لحد الان اثرا .